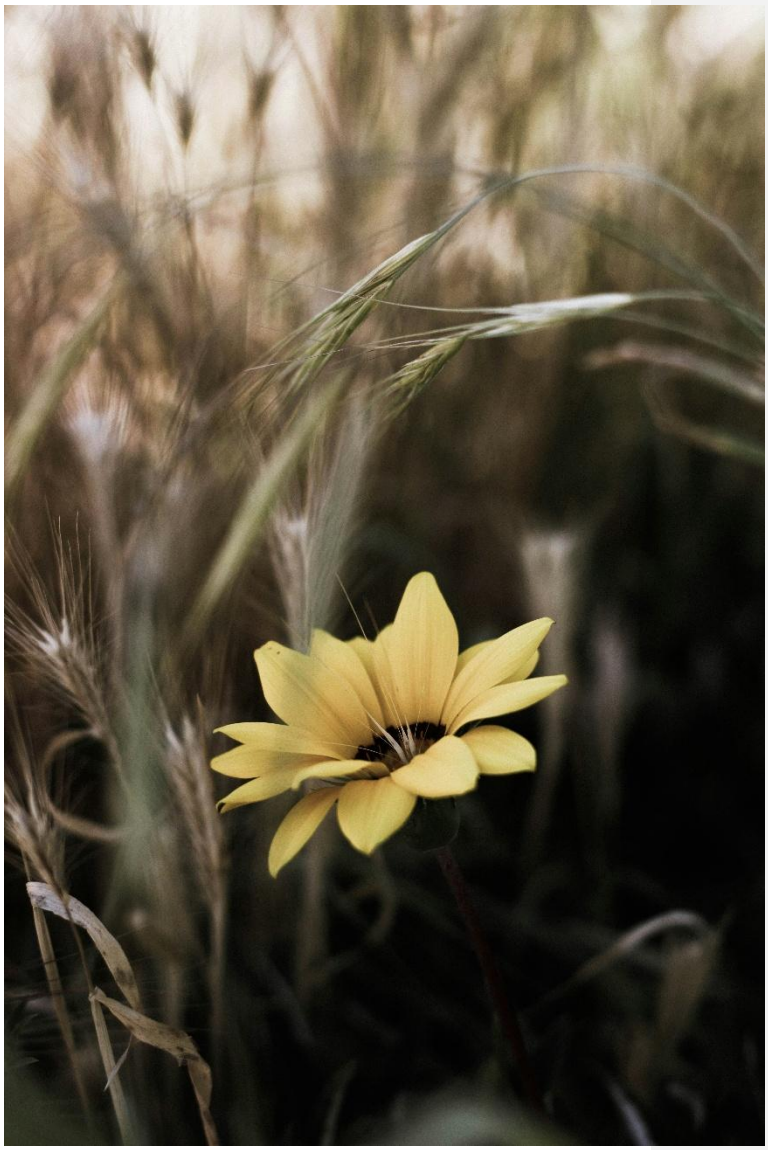

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

الترياق

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٦/٧/١٣ هـ

(الترياق)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً عبده ورسوله.

أمّا بعد..

حديثنا اليوم بعنوان "الترياق"، والترياق كما نعلم هو الدواء، والدواء لا يُعطى إلّا لمريض، لكنّ ميزة هذا الترياق الّذي سنتحدث عنه اليوم أنّه يختلف عن الأدوية المعتادة؛ فهو ليس مرّ المذاق، بل طعمه حلو، وليس صعبًا أو ثقيلًا، بل خفيف على الروح وسهل على النفس، هذا الترياق يتميّز بأنّه يجلب السعادة للقلب، فهو ليس كالدواء الّذي يُشعر الإنسان بالمرارة أو التثاقل.

هذا الترياق يعالج سمومًا كثيرة، وهي سموم حقيقيّة، ليست وهميّة ولا معنويّة فقط، بل تمتد لتشمل جوانب حقيقيّة في حياة الإنسان.

حديثنا عن عبادة عظيمة، عبادة جليلة، عبادة هي في ذاتها ترياق، بها تُفرَّج الكربات، وتُحل الأزمات، وتُستمطر الرحمات. عندما ننتظر المطر ونرجو نزوله، نستدرّ به رحمات الله بهذه العبادة. ومن خلالها، تتنزّل الخيرات والبركات الّتي يأملها الإنسان لنفسه وحياته.

وهي أيضًا وسيلة لمغفرة الذنوب والزلّات الّتي تثقل كاهل الإنسان.

وإذا تحدّثنا عن هذه العبادة وهذا الترياق الشافي، نجد أنّ الإمام ابن القيّم قد أوضح تأثير الذنوب في كتابه "الداء والدواء"، مبيّنًا أنّ للذنوب سمومًا حقيقيّة تؤثر في البدن والنفس، يقول: "**إنّ للذنوب سمومًا، وسمومها حقيقة توهن البدن**"، حتّى لو كان الجسد قويًّا وأصحابه يتمتعون بلياقة بدنيّة عظيمة، فإنّ الذنوب تضعفه وتوهنه.

وضرب مثالًا عن الشعوب ذات الأجساد القويّة، مثل الروم في زمانه، أو كما نرى اليوم عند الأجانب، كالأمريكيين وغيرهم، الّذين يمتلكون أجسادًا قويّة، ومع ذلك، قلوبهم خواء،

وفي المقابل، قد نرى المسلمين، بالرغم من قلّة عتادهم وقوّتهم الماديّة، كما في حروب المسلمين واليهود اليوم، حيث قد يكون أحدهم مدجّجًا بالسلاح، لكنّه يخاف من شخص بسيط، ربّما حافي القدمين، لا يملك سلاحًا بين يديه.

وهذا الفرق يكمن في أثر الذنوب الملطخين بها؛ فهي توهن القلب والجسد، وتُثقل الروح، كما أشار ابن القيّم، ويقول أيضًا: "**للذنوب سموم تزيد عن المئة**"، وقد أخذنا سابقًا درسًا كاملًا عن أثر المعاصي، ثمّ قال: "**والاستغفار يحصّنك منها، وهو الترياق لكل داء**"

إذاً حديثنا اليوم عن الاستغفار،

ليس فقط كعبادة، بل لأنّه دواء نحتاجه جميعًا لمعالجة الذنوب وآثارها وسمومها، وللتخلّص من الوهن الّذي تتركه في نفوسنا وأجسادنا.

ونحن الآن ما زلنا في شهر رجب، شهر التخلية الّذي تحدثنا عنه سابقًا، قلنا إنّ هذا الشهر هو شهر لتطهير القلوب

وإخلائها من الذنوب والمعاصي، وما دمنا في هذا الشهر، فإنّ أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هي الأخذ بهذا الترياق، وهو الاستغفار، لمعالجة أنفسنا من الذنوب التي لا تزال تثقل كاهلنا.

العبد مع ذنوبه لا يخلو في كلّ حالاته من ثلاث:

١. الوقوع في معصية أو ذنب.

٢. ترك واجب أو التقصير فيه: الله سبحانه وتعالى أمرنا بأوامر يريد منّا الامتثال لها، وقد نقع في تقصير أو تأخير في أداء هذه الأوامر.

٣. أداء واجب، ولكنّه لا يخلو من الخلل أو النقص: قد نؤدّي الصلاة أو العبادة كما أمرنا، ولكن هناك خلل ونقص يشوبها.

ودواء هذه الحالات الثلاث الّتي تتكرّر في حياة الإنسان، تلك الأمور الّتي قد تصيبه بشكل يوميّ هو الاستغفار.

إذًا نحن في الاستغفار نتعامل مع هذه الحالات الثلاث، وقبل أن نسترسل في الحديث عن الاستغفار، ينبغي أن نفهم أنّه لا يقتصر فقط على طلب مغفرة الذنب، بل يشمل أمرين رئيسين:

١. مغفرة الذنب: بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ يمحو الذنب.

٢. ستر الذنب: وهو أنّ الله يغطّي هذا الذنب عليك، فالاستغفار من الغفران، وهو الغفر بمعنى الغطاء.

ولهذا الستر ميزة عظيمة، فالله عزّ وجلّ إذا ستر على العبد ذنبه في الدنيا، ولم يجاهر العبد بمعصيته، ثمّ تاب واستغفر، وتقبل الله منه ذلك، فإنّ الله سيستره عليه في الآخرة أيضًا. وإذا ستره الله في الآخرة، فلن يعذّبه به أمام الخلق، ولن يُعرض على الملأ في نار جهنم.

فالأول فيه معنى الستر، وأيضًا الثاني ليس فقط أنّ الله يغفر الذنب بمعنى يمحوه، بل إنّ الله عزّ وجلّ -وهذا من تمام رحمته بنا- يزيل أثره، أثر الذنب عليك، قد ترتكب ذنبًا كبيرًا وتفسد إفسادًا عظيمًا، وفي الحالة العادية تحتاج إلى سنوات ليعود إيمانك كما كان، لأنّ ما فعلته هو أنك اجترأت على الله عزّ وجلّ، وقطعت الحبل بينك وبينه، وقد يكون من الصعوبة أن تعود، لكنّ العبد لا يزال يستغفر ويستغفر حتّى لا يمحو الله عزّ وجلّ الذنب فقط، بل يمحو الذنب ويمحو أثره الّذي تسبّب فيه عليك وعلى حياتك،

ولذلك يقول الله عزّ وجلّ في الحديث القدسيّ: [يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي] (١)، تخيّل من يكون هذا الإنسان؟ لفّ بنظرك يمينًا ويسارًا، وتخيّل إنسانًا يذنب يوميًا، ليس بمئات الذنوب، بل بآلاف الذنوب، حتى بلغت عنان السماء. قد يصعب علينا تصوّر ذلك، فنحن ربّما نتخيّل أن ذنوبنا قد تملأ خيمة أو حديقة، لكن أن تصل إلى عنان السماء؟ هذا شيء يفوق الخيال. أيّ نوع من الذنوب هذه الّتي تسرف فيها على نفسك بهذا الشكل المتوالي؟

وبالتأكيد، هذه الذنوب ليست مقتصرة عليك وحدك، بل ربّما تتسبب بها أيضًا لغيرك، لأنّه من غير المعقول أن تصل الذنوب في أربع وعشرين ساعة إلى هذا الحدّ دون أن يكون لها أثر على من حولك، ومع كلّ هذا الظلم، والكدر، والذنوب المتتالية الّتي أثقلت الكاهل، تأمّل كيف تكون هيّنة عند الله عزّ وجلّ إذا صدقت في التوبة.

١ أخرجه الترمذي في السنن وقال الألباني صحيح

ولذلك يقول النبيّ ﷺ: [من قال: أستغفر الله الّذي لا إله إلّا هو الحي القيّوم وأتوب إليه، غُفر له وإن كان فرّ من الزحف] (٢)، والفرار من الزحف يعدّ من السبع الموبقات، مثل القتل والسحر والزنا، ويُعدّ من الكبائر وليس من الصغائر. ومع ذلك، تأمّل هذا الفضل، جملة واحدة فقط تقولها يمكن أن تمحو جبالاً من الكبائر. فمن قالها غفر الله له حتّى وإن كان قد ارتكب كبيرة كالفرار من الزحف.

وهذا يوضّح لنا أنّ الله عزّ وجلّ يغفر الذنوب جميعها، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، ولذلك يُقال: "لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار".

كما قال النبيّ ﷺ عن هذا الترياق: [طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً] (٣)، و "طوبى" قيل إنّها شجرة في الجنّة، يسير الراكب في ظلها خمسمائة عام، وقيل إنّها تشير إلى الحياة الطيبة.

فإذا كنت تبحث عن عبادة في شهر رجب لتداوم عليها، فالاستغفار هو الترياق الّذي نحتاجه جميعاً، إذا أردنا أن نخرج من هذا اللقاء بشيء واحد فقط، فهو أن نلتزم بالاستغفار حتى يصبح كالنَّفَس الّذي لا نستغني عنه.

النبيّ ﷺ وصف لنا مشهداً مهيباً من يوم القيامة، يوم تتطاير الصحف، ونشهد الأهوال الّتي تجعل الولدان شيباً، تُسجّر البحار ويظهر الصراط في هذا اليوم العظيم، حيث يُنادى على كلّ شخص باسمه للحساب، والناس كلّها تتابع هذا المشهد. تشرئّب أعناقها لك، تخيّل، يُنادى على اسمك، وتُقاد إلى الحساب وأمامك صفّ من الملائكة، وكلّ الناس ينظرون، هذه اللحظة تذكّرنا بلحظات النداء في المدرسة لاستلام الشهادة، حتّى ولو كنت في المرتبة الأولى يخفق قلبك بشدة في تلك اللحظة، فكيف بنا ونحن أمام الخلق أجمع؟ وأنّ النهاية إلى جنّة أو نار، ولا دار ثالثة، فالمصير إمّا إلى هنا أو هناك.

في هذا اليوم، هناك أناس حين تُفتح صحائفهم يشعرون بالفرح والسرور. يقول النبيّ ﷺ: [من أحبّ أن تسرّه صحيفته، فليكثر من الاستغفار] (٤)،

إذا كنت ترغب في إعداد شيء ليوم القيامة، للحظة الّتي تُفتح فيها صحيفتك، تشعر أنك لا تملك الكثير من الأعمال الصالحة، أو أنك لست كغيرك ممن يملكون رصيدًا كبيرًا من العبادات، فاعلم أن لديك كنزًا عظيمًا الآن وهو الاستغفار.

لا تدع يومك يمضي دون أن يكون الاستغفار جزءًا من حياتك في الليل والنهار، بل اجعله مع أنفاسك دائمًا. قال الحسن البصريّ: "**أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة**"،

لا تعرف متى يتقبّل الله منك هذا الاستغفار، أو متى ستتنزل رحمته عليك. لذا، اجعل الاستغفار حاضرًا في كلّ لحظة: أثناء إعداد الطعام لأولادك، وأنتِ تضعين السفرة، وأثناء قيادة السيارة، أو حتّى في مجالسك مع الآخرين. استغفر بين حديث وآخر، أو في اللحظات الصامتة. اجعل لسانك دائم الذكر والاستغفار.

---

٢ أخرجه الترمذي في السنن وقال الألباني صحيح

٣ أخرجه ابن ماجه في "سننه"، وقال الألباني صحيح.

٤ أخرجه الطبراني، صحيح

عن أبي المنهال قال: "ما جاور عبد في قبره جار هو خير له من الاستغفار"، تأمّل هذا القول: إذا كنت تبحث عن شيء يصحبك في قبرك حين يتركك الأهل والمال، ولا يبقى معك سوى عملك، فما من جارٍ أفضل وأعظم نفعًا من الاستغفار.

أهميّة هذا الترياق "الاستغفار" تتجلّى في كثرة ذكره في القرآن الكريم؛ فقد أمر الله عزّ وجلّ به في مواضع عديدة، حيث يمكن أن تمرّ بك أثناء قراءتك لوردك:

- قال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة، ١٩٩)
- وقال: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} (هود، ٩٠)

كما مدح الله المستغفرين في مواطن شتّى:

- قال تعالى: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} (آل عمران، ١٧)
- وقال: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (الذاريات، ١٨)

ولمّا امتدح الله المؤمنين المتّقين، جعل من صفاتهم الاستغفار:

- قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران، ١٣٥).

ولأنّ للاستغفار هذه الأهميّة الكبيرة، كان هو وظيفة الأنبياء والمرسلين، فما من نبيّ إلّا وكان الاستغفار ركنًا أساسيًّا في دعائه وعبادته. منذ آدم عليه السلام الّذي قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الأعراف، ٢٣)، مرورًا بنوح، وموسى عليهم السلام وغيرهم، وصولًا إلى نبيّنا محمّد ﷺ.

قال موسى عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (القصص، ١٦)، وأمر الله عزّ وجلّ نبيّنا محمّد ﷺ بالاستغفار، على الرغم من أنّه غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، حيث قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} (غافر، ٥٥)، وكان النبيّ ﷺ سيّد المستغفرين بلا منازع، إذ قال : [والله إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة.] (٥)، يستغفر باليوم الواحد أكثر من سبعين مرّة.

النبيّ ﷺ قال: [إنّه ليغانّ على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مئة مرّة] (٦)، ومعنى "يغانّ على قلبي" أنّه يصيبه شيء من انشغال الخاطر أو أثر الأمور الّتي يحملها، كهمّ دعوة الوفود، وحمل همّ أمّته، أو التفكير في أمور المعارك، والسراري، أو الصلح مع الكفار.

وهذه ليست همومًا دنيويّة كالتجارة والأسهم أو غيرها، ومع ذلك، كان النبيّ ﷺ يستغفر الله أكثر من مئة مرّة يوميًّا لينشرح صدره ويصفو قلبه.

ويقول ابن عمر رضي الله عنه: "**إنّا كنّا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرّة يقول: "ربّ اغفر لي وتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرحيم**" (٧)

---

٥ أخرجه البخاري صحيح.

٦ (أخرجه مسلم، صحيح).

٧ خرجه أبو داود، وقال الألباني صحيح.

تخيّل كمّ مرّة يجلس النبيّ ﷺ مع أصحابه في اليوم؟ خمس صلوات؟ وهذه بلا شكّ يجلس بعدها مع أصحابه. بالإضافة إلى المجالس الأخرى من الاستفتاءات، والأسئلة، والتوجيهات. فإنّ أقلّ تقدير لذلك هو سبعة مجالس يوميًّا. وفي كلّ مجلس كان يُسمع منه الاستغفار مئة مرّة.

الشيخ يعقوب ذكر أنّ النبيّ ﷺ كان يستغفر الله عزّ وجلّ بكثرة، فجلس مع مجموعة من طلاب العلم ليحسبوا كم يستغفر النبيّ ﷺ في اليوم الواحد. وكان التقدير بين ألف استغفار، وقد يصل إلى سبعة آلاف، بناءً على مجالس النبيّ ﷺ اليوميّة، وعدد استغفاراه في كلّ مجلس.

إذًا، إذا كان الاستغفار سِمة الأنبياء، وأمر الله عزّ وجلّ لعباده المتّقين، **فما أسرار هذا الاستغفار العظيم؟ تعالوا نتأمّل معًا في هذه الأسرار:**

أوّلًا: الاستغفار يزيل معظم أسباب الخطايا والذنوب، فليس فقط يمسح الذنب، بل يمسح أثره وسببه.

على سبيل المثال، إذا شعرت اليوم بأنك مكروب، أو أنك تشتهي فعل شيء محرم، فالاستغفار يعمل على إطفاء هذا الاشتهاء، وكأنّك تسكب ماء على النار الّتي تستعر في قلبك.

فالنفس الّتي قد تستعر بسبب الغضب أو الرغبة في الذنب، عندما تلهج بالاستغفار، كأنّها تهدأ ويطفأ ذلك الشر الّذي يجرّك نحو المعصية.

وهذا من أعظم ما يفعله الاستغفار؛ فهو لا يعالج الذنب فقط، بل يطفئ الأسباب الّتي تدفعك للوقوع فيه. ولذلك، قال الله تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} (النساء، ١١٠)، فتجد الله غفورًا رحيمًا لكلّ الزلات والخطايا.

ثانيًا: الاستغفار له دور عظيم في تطهير القلب وتنقيته.

فكلّما زال السبب وزال الأثر واغتفر الذنب، تدريجيًّا ستجد أنّ قلبك يبدأ في التنقية والتطهير. يقول النبيّ ﷺ: [إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ سُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكرَ اللَّه: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (المطففين: ١٤)] (٨)، تخيّل هذا القلب الصغير، الّذي هو بحجم الكف، هذه المضغة الصغيرة الموجودة في دواخلنا، وكيف أنّ كلّ ذنب نرتكبه يترك نكتة سوداء عليه. فخذ إبرة وحاول أن تنكش فيها ورقة على قدر كفّك. لكلّ ذنب نقطة بالإبرة، حتّى تسودّ الورقة، كم نقطة ستضع؟ مئة؟ مئتين؟ النبيّ ﷺ يقول: "فإذا نزع" يعني شال نفسه من الذنب وتاب، "استغفر وتاب، وسقل قلبه" فحينما يتوب العبد ويستغفر، كأنّ تلك النقاط السوداء الّتي تكوّنت على قلبه تتلاشى ويعود القلب صافياً ومستقيماً.

لكن إذا عاد الإنسان للذنب، فإنّ تلك النقاط السوداء تعود وتزداد، ويستمرّ القلب في التأثّر بذلك، فكلّما أذنبت ونسيت أن تستغفر وتتوب، تزداد الأحافير والندوب، وبقدر ما تتوب سيصفى ويصقل.

قال العلماء: "**الذنوب تسوّد القلب، ولا يزال العبد كلّما أذنب ذنبًا، زادت الظلمة وعظم السواد في قلبه، فإذا بادر بالتوبة والاستغفار، بادر قلبه بالتطهير**".

٨ أخرجه الترمذي في السنن وقال الألباني حسن

وقيل لأحد السلف: "كيف دينك؟" وهذا سؤال موجع مؤلم. تخيّل أن تُسأل بهذا السؤال؟ لن يستطيع أحدنا الإجابة! فقال: "**أمزّقه بالمعاصي وأرقّعه بالاستغفار**". هذا الجواب ملخّص لحياة الإنسان.

إذا أذنبت واستغفرت الله عزّ وجلّ، ستجد مع مرور الوقت أنّ طعم الاستغفار قد يتغيّر، إذا ظلّ القلب مظلماً بالذنوب. قد يصل الأمر إلى أن تشعر بأنّ الاستغفار بلا معنى، ويبدأ الشيطان بالتلاعب بك: "لماذا أستغفر؟ أأخدع الله؟ هل أنا منافق بوجهين أنا مذنب ولن أترك الذنب". هنا تكون قد استسلمت للشيطان وسلمت نفسك له ليعبث بك كما يشاء.

قال ابن القيّم : "سألت شيخ الإسلام ابن تيمية: أيهما أنفع للعبد، التسبيح أم الاستغفار؟ -وهذا سؤال ذو أهميّة، لأنّ كلّاً منهما له فضائل عظيمة وأجر كبير. فأجاب شيخ الإسلام: "**إذا كان الثوب نقيّاً، فالبخور وماء الورد أنفع، وإذا كان دنساً، فالصابون والماء أنفع**".

متى يبدأ الإنسان في الإكثار من التسبيح والتهليل؟ عندما يكون القلب طاهراً ونقيّاً، مثل الثوب النظيف، فيكون التسبيح والتهليل بمنزلة البخور وماء الورد الّذي يزيده طيباً وجمالاً.

أمّا إذا كان القلب لا يزال ملوّثاً بالذنوب والخطايا، فهو بحاجة أوّلاً إلى التنقية والتنظيف بالاستغفار، لأنّه كالصابون الّذي يزيل الأوساخ عن الثوب الدنس، لهذا نقول دائماً: "التحلية تأتي بعد التخلية".

يقول ابن القيّم مكملًا: "**ومن أعظم أسباب ضيق الصدر هو الإعراض عن الله عزّ وجلّ، ولا يزال الاستغفار الصادق بالقلب حتّى يردّه بالصحة والسلامة**"، والصحة والسلامة هنا ليست مجرّد كلمات عابرة، بل تعني أنّ الله يردّ قلب العبد صحيحًا إلى ربّه.

نسأل الله دائمًا: "يا ربّ، اشفِ قلوبنا". ولكن قد يتساءل الإنسان: كيف تُشفى القلوب وأنا أشعر أنّ قلبي لا يزال كما هو؟

أحيانًا يكون الحماس موجودًا، لكنّ القلب يبدو قاسيًا أو باردًا، ليس كما كان في السابق عندما كنت تحضر درسًا وتعود لتطبيقه. تشعر أنّك تجبر نفسك، فما الّذي حدث؟

الحقيقة أنّ القلوب تمرّ بمراحل مختلفة. لكن عندما يقول: "فلا يزال العبد بالاستغفار حتّى يرده الله بالصحة"، فهذا يعني أنّ القلب يعود صحيحًا وسالمًا، أي خاليًا من الذنوب.

فلننظر إلى أنفسنا ونسأل: لماذا لم نعد نجد لذّة في الطاعات التي كنا نستشعرها من قبل؟ بعض الناس عندما يتصدّقون يشعرون في ذلك اليوم بالبركة في كلّ شيء، بالصلاة بخشوع، وبسهولة الصيام والقيام. أمّا الآن، قد يفعلون نفس العمل وبنفس المقدار، لكنّهم لا يجدون ذات الأثر. السبب يكمن في الداخل، في القلب، لأنّه قد أصابه خلل.

ومن منّا يرضى أن يعيش في بيت دون تنظيف؟ تمامًا كما لا يمكن للإنسان أن ينام في غرفة غير مرتّبة، أو يعيش في بيت خالٍ من النظافة والعطر والبخور، تشعر وكأنّ هناك شيئا ناقصًا، إذا كنّا لا نرضى بالسكن في بيوت غير نظيفة، ولا يقبل أحد منّا أن يقابل الناس دون اغتسال أو تنظيف، فإنّ شعور الإنسان طوال الوقت بأنّه غير مرتاح، أو كأنّ هناك خطأ فيه، يعود إلى إحساس داخليّ بالنقص أو التقصير. ترى الشخص يتحاشى الاقتراب من الآخرين، ويسلّم من بعيد، ويمضي وهو يشعر بعدم الارتياح. لماذا؟ لأنّ هناك خطأ في الداخل.

وقد عبّر أحد الصحابة عن هذا المعنى بقوله: "**لو كانت للذنوب رائحة، ما جالسنا أحد**"، تخيّل لو أنّ كلّ ذنب ارتكبته ترك فيك رائحة فوّاحة لا يمكن إخفاؤها، كيف ستواجه الآخرين؟ كيف سنجتمع ونتقابل؟

تخيّل أنّ شخصًا ارتكب ذنبًا قبل ساعتين، وعندما حضر بين الناس فاحت منه رائحة هذا الذنب، لكن من رحمة الله عزّ وجلّ علينا أن سترها علينا

ثالثًا: من عجائب الاستغفار أنّ الله وعد من استغفره بالمغفرة،

مهما كانت حاله، فالوعد شامل للجميع. قال الله تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} (طه، ٨٢)، تأمّلوا هذه الآية وكميّة التأكيد فيها:

١. "إنّي": للتأكيد.

٢. "اللام" في "لغفّار": لام التأكيد.

٣."غفّار": صيغة مبالغة تدلّ على كثرة الغفران ودوامه، فهو سبحانه لم يقل "غافر" أو "غفور" فقط، بل اختار "غفّار"، وهي أبلغ وأعمق في الوصف.

هذا وعد صادق من الله عزّ وجلّ، وهو من البشائر الّتي تظهر عظيم عفوه ورحمته.

قال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} (الإسراء، ٢٥)، والأوّابون هم الّذين يكثرون الرجوع إلى الله مهما كانت حالتهم، "أعود إلى الله وهذا هو حالي، أعود إليه رغم أنّني ربما لم أصلّ قبل أيام، أعود إليه مهما كان وضعي"،

فلا تقل "إنّ قلبي عليه نكت سوداء، وتمزّق تمامًا من كثرة الذنوب. هل أعود؟" نعم، عد، فالله يقول: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ}، ويقول: {فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}، أي للّذين يرجعون إليه باستمرار، مهما كانت أشكالهم، ومهما كانت قلوبهم ممزّقة بالذنوب، أو حتّى إذا كان إيمانهم ضعيفًا ومرقّعًا. المهم أنّهم يحاولون ويعودون، يكفي أنّ الله يراك وأنت تتوجّه إليه، رغم كلّ ما تعانيه. فهو غفور للأوّابين الّذين لا يكفّون عن الرجوع إليه.

يقول الله عزّ وجلّ في الحديث القدسيّ: [يا عبادي، إنّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم] ()[٩]، تأمّل كم هو بسيط وسهل! ليس الأمر بقيام ليل أو عمل عظيم، بل هو فقط تحريك لسانك لتقول: "أستغفر الله"، أو "أستغفر الله الّذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه"، هذا هو الترياق الّذي نتحدّث عنه.

الطريق واضح، فلمَ التوهان؟ لمَ الحيرة؟ لماذا تسأل عن أشياء لتفعلها؟

الأمر أمامك الآن، وهو الاستغفار.

وأعظم ما نستقبل به مواسم الطاعات هو أن نتقدّم إلى الله عزّ وجلّ بهذا الاستغفار.

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: [أذنب رجل ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فغفر الله له. وقال: علم أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويؤاخذ به -وكرر ذلك ثلاث مرات، وفي نهاية الحديث قال النبيّ ﷺ- إنّ الله يقول: اعمل ما شئت يا عبدي فقد غفرت لك] ()[١٠]،

٩ (أخرجه مسلم صحيح).

١٠ أخرجه مسلم، صحيح.(

وقد أوضح العلماء أنّ هذا العبد مستمرّ على ذلك الذنب، لم يكن مستمرًا في الذنب مع الإصرار، بل كان دائم الرجوع إلى الله، أوّابًا تائبًا بصدق.

فهو يقول: "يا ربّ، لا أريد أن أفعل ذلك، لكنّني ضعفت، لا أدري كيف فعلت" ولكن لا تمرّ عليه ساعتان، وليس شهرين، إلّا وقد وقع في الذنب مجدّدًا.

إنّ هذا العبد الضعيف الّذي يعجز عن مقاومة الذنب، كلّما وقع فيه يذوب ندمًا وقهرًا، يبكي بين يدي الله ويناجي ربّه: "يا ربّ، أذنبت ذنبًا فاغفر لي. يا ربّ، أنا لا أريد أن أعصي، أنا ضعيف. كيف أقاوم؟" هذه التوبة، وهذه المناجاة الصادقة، تجعل هذا العبد في حالة من الرجوع المستمرّ إلى الله عزّ وجلّ.

الله سبحانه وتعالى، وهو أكرم الأكرمين، ينظر إلى هذا العبد الّذي كلّما أوقعه الشيطان في الذنب، عاد وركض إلى ربّه. الشيطان يختطفه بالذنب، يُبعده ويُلطخه، لكن هذا العبد لا يرضى أن يكون من أهل الشيطان، فيعود راكضًا إلى مولاه، مستغفرًا وتائبًا.

الله ينظر إلى هذا العبد من فوق سبع سماوات، ويقول: "علم عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به. قد غفرت لعبدي، فليعمل ما يشاء"، أي أنّ ذنبه يُمحى، وصحيفته طاهرة فهو مغفور له.

قال العلماء في هذا: **"إنّ من كرم الله عزّ وجلّ أنّه قدّم مغفرته على مؤاخذته بالذنب"**، حيث قال: "علم عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب"، فجعل المغفرة أوّلًا قبل الحديث عن الأخذ بالذنب.

ثم ذكر النبيّ ﷺ أنّ الشيطان قال في بداية قصّته مع البشر: "وعزّتك يا ربّ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم"، أي أنّ الشيطان قد تعهّد بأن يستمرّ في إغواء بني آدم حتى آخر لحظة من حياتهم.

فمن يظن أنّه بمجرّد اتخاذ قرار التوبة أو تغيير حياته سيصبح في مأمن من وساوس الشيطان، فهو لا يدرك طبيعة اللعبة.

قواعد هذه اللعبة واضحة: الشيطان يلازم الإنسان حتّى اللحظة الّتي تفارق فيها الروح الجسد، ويسعى في تلك اللحظات الأخيرة بكلّ ما أوتي من مكر أن يحول بينه وبين نطق "أشهد أن لا إله إلّا الله"، فهو يجري في دم الإنسان حتّى آخر لحظة.

ولكنّ هذا الالتصاق للشيطان بنا يمكننا أن نردّه ونصدّه بالعمل الصالح وذكر الله عزّ وجلّ، كما قال الله تعالى: {إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان}، أي أنّ للشيطان مكرًا وكيدًا، لكنّه ضعيف جدًّا أمام عباد الله المخلصين.

عندما حلف الشيطان قائلًا: "وعزّتك يا ربّ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم"، جاء ردّ الله عزّ وجلّ بعظمته وجلاله قائلًا: "وعزّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"،

فالشيطان يسعى لإغواء الإنسان بكلّ طاقته، يُلطّخه بالذنب ويُسقطه في المعصية، لكنّه يُهزم في اللحظة الّتي يرفع فيها العبد يديه ويقول: "يا ربّ، اغفر لي ".عندها يغفر الله له، لأنّ الله لا يريد منك إلّا تلك اللحظة؛ لحظة الرجوع إليه.

الاستغفار الّذي قد نراه هيّنًا هو في الحقيقة أمر عظيم جدًّا، لأنّ هناك حرب شعواء مستمرّة بين الإنسان والشيطان. فالشيطان يسعى بكلّ ما أوتي من مكر ليقلّل حتّى من أبسط الطاعات، فلو كنت تقول الاستغفار مئة مرّة، سيحاول أن يجعلك تقوله خمس وسبعون مرّة، ولن يتركك حتّى تنقص منه.

سيقف لك عند صلاة الفجر أو العصر ليمنعك من أذكارك أو استغفارك، فالشيطان يحلف قائلًا: "وعزّتك لأغوينّهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم"، لكنّ الله يقابل ذلك بقسمه الكريم" :وعزّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"، المعركة قائمة، وأنت المحور الأساسي فيها، لذا عليكِ أن تعرف كيف تتوجّه.

رابعًا: أنّ من واظب على الاستغفار سرّته صحيفته يوم القيامة.

والأمر الخامس أنّ الاستغفار سبب للنجاة من النار،

كما ورد في الحديث النبويّ: [يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإنّي رأيتكنّ أكثر أهل النار] (١١)، وهذه حقيقة أنّ النساء أكثر أهل النار، ولأسباب عدّة.

تأمّل واقع المجتمع وما يحدث بين النساء من أخطاء اليوم. وبالرغم من ذلك، الرجال أيضًا لديهم ذنوبهم ومعاصيهم الّتي قد تكون سببًا لعذابهم، ولكنّ النبيّ ﷺ كشف عن هذه الحقيقة وقال ذلك لمّا رأى وانكشف له أنّ النساء هنّ الأكثر في النار،

وعند السؤال عن السبب، أُجيب بأنهنّ يكثرن اللعن ويكفرن العشير. في لحظة غضب قد تنطق المرأة بكلمة مثل: "ما رأيت منك خيرًا قط". وفي تلك اللحظة، قد يشتدّ عليها الأمر، ويدخل الفجور في الخصومة، خاصةً بين المرأة وزوجها.

الأمر السادس: الاستغفار سبب لنيل رحمة الله عزّ وجلّ،

ليس فقط في الدنيا، بل في الدنيا والآخرة. يقول النبيّ صالح عليه السلام لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (النمل، ٤٦)، عندما يستخدم الأنبياء تعبير "عسى" أو "لعلّ"، فإنّهم يتحدّثون عن أمر مؤكّد، فالاستغفار يجلب الرحمات من الله ويجعلها سببًا لدخول الجنّة.

وعندما عدّد الله صفات المتّقين، ذكر من بينهم المستغفرين، وقال في نهاية الآيات: {أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (آل عمران، ١٣٦)، والجزاء من جنس العمل؛ فمن أكثر من الاستغفار، كان جزاؤه مغفرة من الله وجنّات تجري من تحتها الأنهار، خالدًا فيها.

فإن أردنا طريق الجنّة، فإنّ الاستغفار هو السبيل. وقد وعد الله من يكثر الاستغفار بهذا الجزاء العظيم.

وليس الاستغفار سببًا لدخول الجنّة فقط، بل هو أيضًا وسيلة لرفع الدرجات فيها.

يقول النبيّ ﷺ: [إنّ الله عزّ وجلّ يرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنّة، فيقول: يا رب، أنّى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك] (١٢)، تأمّل بساطة الأمر: مجرّد أن يقول ولدك: "ربّ اغفر لي ولوالدي" بقلب صادق، يمكن أن يرتقي الوالدان في درجات الجنّة. لذلك، من أعظم النعم أن يكون لديك ولد صالح يدعو لك.

ولا يتوقف الأمر عند رفع درجات الوالدين فقط، بل يمتدّ أيضًا ليشمل الأصحاب والإخوان في الله. فعندما يُستغفر لهم، يكون ذلك سببًا لرفع درجاتهم.

---

١١ أخرجه مسلم. صحيح

١٢ أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح.

كما جاء في حديث النبيّ ﷺ عندما فرغ من دفن ميّت، يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه: [فوقف النبيّ ﷺ على قبره ثم قال: "استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل"] (١٣)، فالاستغفار لا ينفع صاحبه فقط، بل يمتدّ نفعه ليشمل الأحياء والأموات.

الاستغفار يحمل بين طيّاته منافع عظيمة تشمل سعة الرزق، والمال، والمطر، والولد، وهذه المعاني واضحة في دعوة نوح عليه السلام لقومه، يقول الله تعالى: {وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً} (هود، ٣)، قالوا إنّ "المتاع الحسن" يعني رغد العيش ورفاهية الروح. فمن الاستغفار تتحقّق المنافع الدنيويّة كالسعة في الرزق، وراحة البال، والعافية.

وهذه الأمور الثلاثة: العافية، ورغد العيش، والراحة، هي ما يسعى إليها الجميع.

فالعيش في راحة وبدون همٍّ أو كدر هو من ثمار الاستغفار. وعندما قال نوح لقومه: {استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً* يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً} (نوح، ١٠-١٢)، كان يشير إلى البركات العظيمة التي تنبثق من التوبة والاستغفار.

أمّا لماذا دعاهم نوح للاستغفار مقرونًا بالمال والبنين؟ فقد جاء في تفسير مقاتل، أحد تلاميذ ابن عبّاس، أنّه عندما كذّب قوم نوح واستمرّوا في عنادهم، أمسك الله المطر عنهم وأصبحت نسائهنّ عقيمًا لا تحمل ولا تلد أربعين سنة، وهلكت مواشيهم وزروعهم.

وحينما أدركوا شدّة الأزمة، لجأوا إلى نوح يستغيثون به. فأرشدهم إلى الحلّ الجذريّ وقال لهم: "استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً".

ذات يوم، عندما أجدبت المدينة وقحطت الأرض، صعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه المنبر ليستسقي. لكنّه لم يتجاوز أن تلا هذه الآيات الكريمة: {استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً* يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً} (نوح، ١٠-١٢).

ثمّ نزل من المنبر دون أن يدعو دعاء الاستسقاء المعتاد.

تعجّب الناس فهم جاءوا ليحضروا خطبة الاستسقاء المعتادة، قالوا له: "يا أمير المؤمنين، لو أنّك دعوت! لو أنّك استسقيت!" فأجابهم قائلاً: "لقد طلبته بمجاديح السماء" ومعنى "المجاديح" كالألواح الخشبيّة كأنها أوانٍ كبيرة، فطلبه بمجاديح السماء لينزل المطر، فالمطر لا يستنزل من خزائن الله إلّا بمثل الاستغفار، فكيف بما ترجوه من الله عزّ وجلّ من رزق ورحمة وفضل؟

ذُكر القرطبيّ أن رجلاً شكا للحسن البصريّ الأرض الجرداء والجدب، فقال له الحسن: "استغفر الله". ثمّ جاءه آخر يشكو الفقر فقال له: "استغفر الله". وجاء ثالث يطلب الدعاء بأن يُرزق بالولد، فأجابه قائلاً: "استغفر الله."

كان تلاميذه حاضرين فاستغربوا وقالوا: "يا أبا سعيد، لقد طلبوك بثلاثة أسئلة مختلفة، ولم تزد على أن جاوبتهم بجواب واحد!"

فأجابهم الحسن قائلاً: "لقد أجبتهم بما أجاب به الله عزّ وجلّ"، ثم تلا قوله تعالى: {استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً* يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً} (نوح، ١٠-١٢)

١٣ أخرجه أبو داود في سننه وقال الألباني صحيح.

من أعظم ما يفعله الاستغفار في حياة الإنسان أنّه يفتح له أبواب الفرج والخير، كما قال النبيّ ﷺ: [من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ ضيق مخرجاً، ومن كلّ همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب] (١٤).

فالاستغفار يُعدّ مفتاحاً لتفريج الهموم وإزالة الكربات. فإذا كنت تعاني من همٍّ أو ضيقٍ أو كربةٍ شديدة، فالطريق إلى الفرج والراحة يكمن في الإكثار من الاستغفار، حيث يغفر الله لك ويفتح لك أبواب الخير والرزق من حيث لا تتوقع.

قبل أيّام كنّا في جلسة، وذكرت إحداهنّ قصة، تقول: "أنّها كانت تمرّ بكرب شديد، فقرّرت الذهاب إلى مكّة لأداء العمرة والتوجّه إلى الملتزم والتزامه"، وهو المكان الصغير الّذي يبلغ حوالي سبعين سم بين الحجر الأسود وباب الكعبة، منطقة صغيرة جدًّا يلتزمها من عنده حاجة.

تقول: "أنّها ذهبت بقلب مليء بالدعاء، راجية أن يفرّج الله كربها، وعندما وصلت إلى الملتزم، لم تصدّق ذلك وبدأت بالدعاء بكلّ إخلاص"، وفي أثناء دعائها، سمعت امرأة بجوارها تبكي بصوت مرتفع وتردّد: "يا ربّ همّي، يا ربّ همّي، يا ربّ اقضِ همي"، وكانت تبكي بحرقة شديدة.

تقول: "لم أتمكن من متابعة دعائي حينها، فقد تأثرت كثيرًا بصوتها. التفتُّ إليها وسألتها: ما هو همّك؟ ما هو همّك؟"، كانت تقول إنّها مهمومة، مهمومة، وتخيّلوا الزحام الشديد، والناس متلاصقون في هذا المكان.

سألتها: "ما هو همّك؟" فأجابت: "أنا مهمومة، همّ كبير، همّ كبير". فسألتها مجدّدًا: "ما هو همّك؟" فقالت: "دين، دين". فردت عليها: "دينك مقضي"، ثمّ استمرت قائلة لها: "دينك مقضي، امسكي بي، امسكي بي إذا خرجنا، دعينا نتماسك".

وفي تلك اللحظة كانت تحدّث نفسها قائلة: "يا ربّ، كما سأقضي همّها، اقضِ همّي، وكما سأفرّج كربها، فرّج كربي"، تضيف: أنّها لم تكن تعرف أيّ تفاصيل عن نوع الدين أو قصّته، لكنّها كانت واثقة ومطمئنة، ورددت: "دينك مقضي، دينك مقضي"، بالفعل، أمسكت بها وخرجتا من الحرم.

وأثناء الطريق سألتها: "كم دينك؟" فأجابت: "مليون". تقول: "في تلك اللحظة لم أعد أهتم بحجم الرقم؛ هو مقضي، مقضي، كيف؟ لا أعلم"، ثم أضافت: "المهم، عندما قمنا بحساب الدين بعملة بلدها (لأنها لم تكن سعوديّة)، اتّضح أن الدين يبلغ خمسة وعشرين ألفًا فقط، وهو مبلغ كنت قادرة على سداده بسهولة.

فقلت لها: انتهى، دينك مقضي"، تكمل القصة: "قبل أن أسألها عن المبلغ، كانت تخبرني وهي تبكي بحرقة: 'هذا همّي، بعت كلّ شيء لأتمكّن من المجيء إلى هنا. حتّى العقد الّذي ورثته من أمّي، وهو غالٍ جدًّا بالنسبة لي، بعتُه. ولم أعد أملك شيئًا، كلّ شيء بعتُه فقط لأتمكن من الوصول إلى الله عزّ وجلّ وأدعوه أن يفرّج عنّي هذا الكرب"، تقول: "أمسكتها وأخذتها وأدخلتها إلى أحد محلات الذهب في الحرم، وقلت لها: الآن اختاري شيئًا يشبه عقد أمّك الذي بعتِه"، فقامت تلك المرأة، وقد غلبها الحياء، تحاول اختيار سلسلة بسيطة وضعيفة. فقالت لها: "لا، اختاري شيئًا أفضل." وبدأت هي بنفسها تخرج عقودًا كبيرة وثمينة من الذهب لتحسن العطيّة، لعل الله يحسن إليها

---

١٤ أخرجه ابن داود وقال الألباني ضعيف

والحديث وان كان إسناده ضعيف إلا أن معناه صحيح، قال تعالى: "وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتّعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتِ كل ذي فضل فضله" سورة هود:٣، وقال تعالى: "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا* يرسل السماء عليكم مدرارا* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا" سورة نوح: ١٠-١٢

بالمقابل، لم تكتفِ بذلك، بل تكفّلت برعايتها بعد ذلك، واهتمّت بأمرها، ونتج عن هذه الحادثة علاقة بينهما، على الرغم من أنّ تلك المرأة ليست من أهل السعودية.

الشاهد هنا: هل كانت هذه المرأة تظنّ أنّ كربها سيُفرج بهذه الطريقة وفي تلك اللحظة؟ لقد جاءت إلى بيت الله وهي تحمل همّها الكبير، بعد أن باعت كلّ ما تملك، حتّى العقد الّذي ورثته من أمها، لتصل إلى هذا المكان وتدعو الله قائلة: "يا ربّ، اقضِ لي همّي".

كانت ترى أن دينها مليون، وهو بالنسبة لها نهاية الآمال، لكنّها لم تدرك أنّ الله عزّ وجلّ قادر على أن يقضي الدين ويغيّر حالها في لحظة. ونسأل الله أن يجزي الأخت الّتي فعلت هذا الخير العظيم خير الجزاء، وأن يفرّج كربها، ويرزقها من حيث لا تحتسب.

عندما نقول" :من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ ضيق مخرجًا ومن كلّ همّ فرجًا" فالاستغفار ليس فقط سببًا للفرج، بل هو أيضًا سبب لرفع العذاب عن العبد في الدنيا، نحن أحيانًا نرتكب أشياءً ونظنّ أنّها تمرّ دون أثر أو عواقب. لكن، إذا تساءلنا عن أسباب ضيق الخاطر، وعن تعكّر الأمور، ولماذا الأهل ينقلبون فجأة علينا؟ أو لماذا العمل لا يسير كما ينبغي؟ أو لماذا نشعر بالتوتر؟ نجد أنّ السبب قد يكون ذنوبنا.

كان السلف يقولون: "إنّي لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وفي خلقي"، كان الواحد منهم إذا رأى دابّته تبطئ أو لا تتحرّك كما ينبغي، يرجع باللوم إلى نفسه، ويتذكّر أنّه ربّما ارتكب ذنبًا أمس، فيربط بين الذنب وبين ما أصابه.

هم قلّت ذنوبهم لأنّهم عرفوا من أين يؤتون، أمّا نحن فذنوبنا كثرت لأنّنا لا نعرف من أين نؤتى، وظننّا أنّ هذا حال الحياة فقط. قلنا لأنفسنا: "الحياة المعاصرة كئيبة ومن الطبيعي أن يشعر الإنسان بالاكتئاب"، لكنّ الحقيقة ليست كذلك دائمًا. نعم، قد يكون هناك أسباب طبيّة، لكن هناك أيضًا أشياء في داخلنا لم نعالجها.

ومن أهم ما يفعله الاستغفار أنّه يمنح الإنسان النصر على عدوّه. يقول الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (آل عمران، ١٤٦)،

هذا الجيش لم يكن يمتلك لا سلاحًا ولا عدّة كافية، وكانوا على وشك مواجهة جيش ضخم، ومع ذلك لم يتراجعوا ولم يهِنوا. فما كان دعاؤهم في تلك اللحظة الحاسمة؟ قالوا: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (آل عمران، ١٤٧).

لو كنّا نحن في موقفهم، لكان أوّل ما نقوله: "يا ربّ انصرنا"، أو "يا ربّ ثبّت أقدامنا"، أو "يا ربّ احفظنا". هذا هو دعاؤنا المعتاد عند الأزمات. ولكن هؤلاء عرفوا الطريق الصحيح، وبدأوا بالاستغفار، فقالوا: "ربّنا اغفر لنا ذنوبنا"، لأنّهم أدركوا أنّ الذنوب قد تكون سببًا في الخذلان، فالذنوب قد تخون الإنسان في أشدّ لحظاته احتياجًا للقوّة، فتخونه شجاعته، وقلبه، وجسده، وكلّ قوّته.

لذلك طلبوا المغفرة أوّلًا، ثم قالوا: "وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين"، وجاءت النتيجة مباشرة في قوله تعالى: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ} (آل عمران، ١٤٨).

حذيفة رضي الله عنه كان قد وصف نفسه بأنّه "ذرب اللسان"، أي أنّ لسانه سريع في الكلام، وأحيانًا قد يخطئ في حديثه. فقال: "يا رسول الله، قد خشيت أن يدخلني لساني النار"، فكان يخشى أن يكون لسانه سببًا في هلاكه، فقال له النبيّ ﷺ: "فأين أنت من الاستغفار؟ إنّي لأستغفر الله في اليوم مئة مرّة"، يعني، إذا كنت تجد صعوبة في التحكم في لسانك، وإذا كنت تخشى أن يؤدّي ذلك إلى الهلاك، فالحلّ هو الاستغفار.

ثمّ جاء في الأثر أنّ الشيطان يقول: "أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار"، فأهلكوا شياطينكم بالاستغفار.

الشيطان يجرّ الناس للذنوب، ويوقعهم في المعاصي، ولكن الاستغفار هو الّذي يضعف الشيطان ويُهلكه. وتابع الشيطان في قوله: "فلمّا رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء"، والأهواء هنا تعني الأفعال الّتي يَفعلها الإنسان من دون شعور بالذنب.

فهناك من يُذنبون ولا يشعرون أنّ ما يفعلونه خطأ، وبالتالي لا يستغفرون لأنّهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعًا.

ولذلك، "لا ضلّ لهم قوم إلّا أوتوا الجدل"، حينما يفقد الشخص إحساسه بالذنب، تبدأ الأمور في التدهور، ويشعر بالملل من هذا الإحساس، وهو شعور لا يتحمله الكثير، يريد أن يجد أحدًا يهوّن عليه ما يفعل، ويريد أن يذنب وهو مرتاح، فلمّا ذهب الإحساس بالذنب ذهب معه الاستغفار.

لاحظ ما قاله الشيطان: "أهلكت الناس بالذنوب فأهلكوني بالاستغفار"، فلمّا رأى ذلك بدأ ينشر الأهواء في الناس، فصار شياطين الإنس الّذين يقولون: "لا تشعر بالذنب، انبسط في حياتك، لا بالعكس، لماذا تشعر وكأنك تحمل صليبًا فوقك وأنت في الدنيا؟ الحياة بسيطة، انبسط في حياتك، والحرام الموضوع فيه مختلف"، أي أنّ الشيطان يُزيّن للناس فعل الحرام ويسهّله لهم، فيظنّ الإنسان أنّ الله لا يعاقبه على خطأ صغير. وعندما يفعل ذلك، لا يشعر بالذنب ولا يستغفر، لأنّه لا يرى أنّه ارتكب خطأ.

لكن في الواقع، الاستغفار سهل وبسيط، لكنّه يحرم الشيطان منك، من ألّا يشعرنا بأننا نندم أو نستغفر، لأنّ الشعور بالذنب قد يكون صعبًا للبعض. قيل: "غضب الله لا دواء له"، فردّ الذهبي قائلاً: "دواءه الاستغفار في الأسحار والتوبة النصوح".

إذًا لا يوجد شيء لا يمكن أن يعالجه الاستغفار والتوبة. لذلك، يوم القيامة، سيرى الناس ما في صحيفتهم وستكون النتيجة مختلفة لأولئك الذين التزموا بالاستغفار والتوبة.

بالطبع، إذا نظرنا إلى الاستغفار في السنّة النبويّة، نجد أن النبيّ ﷺ كان يستغفر في عدة مواطن، وهذه المواضع يمكن أن تكون:

١. بعد الصلاة: فيُسنّ الاستغفار بعد الصلاة، وبعد العبادات، فأوّل ما تفعل بعد الانتهاء من الصلاة وأنت في مكانك تقول: "استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله."
٢. في آخر الليل: أي في الثلث الأخير من الليل قبل الفجر، ذلك وقت مبارك.
٣. عند الشروق والغروب: بعد الفجر وما بين العصر والمغرب مع أذكار الصباح والمساء.
٤. بعد الذنب مباشرة.

وسيد الاستغفار من الأمور المهمة الّتي تقال مع الأذكار، وهو دعاء عظيم، كما ورد عن النبيّ ﷺ: "اللهم أنت ربي لا إله إلّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت"

النبيّ ﷺ قال: [من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنّة، ومن قالها في الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنّة] ([15])

هذا الحديث يوضّح فضل هذا الدعاء العظيم في ضمان الجنّة لمن يقوله موقنًا به. لذلك، إذا قلت هذا الدعاء في الصباح بعد الفجر، أو في المساء بعد العصر وأنت موقن بما تقول، فإنّك قد حصّنت نفسك من كلّ مكروه، بل وضمن الله لك الجنّة إن توفّيت في ذلك اليوم أو الليلة.

ولذلك انتبه ألّا يثنيك الشيطان عن قول هذا الذكر قبل النوم وبعد الاستيقاظ، اجعل هذا الذكر جزءًا من روتينك اليوميّ، مثلما تهتمّ بتفريش أسنانك أو غيرها من العادات اليوميّة، فلا تغفل عن قوله صباحًا ومساءً.

ومن مواطن الاستغفار أيضًا: الاستغفار بعد ارتكاب المعصية.

ففي الحديث الصحيح، عندما يُذنب المؤمن وتُسجّل في قلبه نكتة سوداء، ثمّ إذا تاب ونزع عنها، غُفِر له. فالاستغفار في هذه الحالة يمحو تلك الذنوب ويطهّر القلب.

وأيضًا، بعد الأعمال الصالحات مثل الصلاة ومجالس الذكر،

وليست مجالس الذكر فقط، بل في كلّ مجلس تجلس فيه كمجالس الأسرة أو الأصدقاء، ينبغي أن يختم المجلس بكفّارة المجلس، وهي: "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك" ويُستحبّ أن تذكّر الجميع بترديدها عندما تنتهي الجلسة.

وتذكير الآخرين بها له أجر عظيم، فإن لم تذكروا كفّارة المجلس، فإنّه قد تبوءون بالذنوب الّتي لم تُستغفر، ولكن مع ذكرها يغفر لكم ما كان من كلام أو تصرّفات غير لائقة في المجلس، وتغفر الذنوب التي قد تكون حصلت دون قصد، لهذا، دعونا نتواصى على أن يكون هذا الذكر عادة نلتزم بها دائمًا، والموفّق من يُذكّر ويتذكّر.

نقوم من مجالسنا وآخر كلامنا نكتة، أو "يلّا مع السلامة زوجي ينتظرني"، في تلك الضجة يجب أن نتذكّر كفّارة المجلس ونذكّر الآخرين بها، ووجودها أمامنا يجعلنا نتذكّرها.

كان من الجميل أن نضع البراويز الّتي تحتوي على كفّارة المجلس في أماكن ظاهرة في المنزل، مثل المدخل، كي نراها كلّما دخلنا وخرجنا من المجلس. وهكذا. فإنّ ذلك يساعدنا على تذكّرها دائمًا. فعندما نغادر مجلسًا أو نقوم بتوديع أحد نتذكّر قولها، وينبغي أن نجمع الأجور بشتّى الطرق، فكم من مرّة شعرنا أنّنا ندمنا على عدم قول كفّارة المجلس بعد الخروج من مجلس ما.

أيضًا يكون الاستغفار عند دفن الموتى وفي الحجّ، وبعد الوضوء،

وهنا هناك أدعية تقال مثل قول: "أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير"، هذا الدعاء يفتح للمؤمن أبواب الجنّة الثمانية.

ثمّ قل بعدها مباشرة "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك".

---

١٥ | أخرجه البخاري، صحيح

هذا والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها